بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمَّدًا عبده ورسوله ؛ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وعلى آله وصحبه أجمعين . اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علَّمتنا وزدنا علمًا وأصلح لنا شأننا كله واجعل ما نتعلمه حجةً لنا لا علينا ؛ أمَّا بعد :

فهذه رسالة قيِّمة موسومة بـ«**الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت**» للإمام أَبِي عَلِيٍّ الْحَسَن بْن أَحْمد بن عبد الله بن الْبناء الْفَقِيه العالِم المقرئ رحمه الله تعالى ؛ وهي رسالةٌ نافعة جدًا في بابها ، كتبها رحمه الله تعالى استجابةً لطلب سائلٍ أراد وصيةً جامعة ونصيحةً بليغة ؛ فكتب رحمه الله تعالى هذه الرسالة مبيِّنًا أنها تجمع للمسلم بإذن الله تبارك وتعالى السلامة في الدنيا والآخرة وتنفعه نفعًا عظيمًا في أولاه وأخراه ، وهي رسالة قيمة مع اختصارها ووجازتها حوَت خيرًا كثيرا ونفعًا كبيرا ، نسأل الله عز وجل أن يغفر لمؤلِّفها وأن يجزيه خيرًا ، وأن ينفعنا بها إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ونبدأ مستعينين بالله .

قال الإمام أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمد بن عبد الله بن الْبناء الْفَقِيه المقرئ :

الْحَمدُ للهِ ربِّ الْعَالمينَ ، وَالْعَاقبَةُ لِلْمُتقينَ ، وَصلَّى اللهُ على سيِّدِ الْمُرْسلينَ ، مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَآلهِ الطاهرينَ . وَبعدُ ، أَحْسَنَ اللهُ عونَكَ وتوفيقَكَ ، وصونَكَ وتحقيقَكَ ، فَإنَّكَ سَأَلتَ تَعْجِيلَ رِسَالَةٍ تنفعُكَ فِي أُولاكَ وأُخراكَ ، وَتَجْمَعُ لَكَ سَلامَةَ دينِكَ ودُنياكَ ، فأَتَيْتُكَ بِهَا مُخْتَصَرَةً ، يُسْتَدَلُّ بأبْوابِها على مَفْهُومِ خِطابِها، نَفَعَنا اللهُ وَإيَّاكَ بهَا وَجَمِيعَ الْمُسلمينَ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

****

استهلَّ رحمه الله تعالى رسالته بحمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسقَط ذِكر السلام وقد يكون السقْط من النسَّاخ أو أنه فاته كتابةً ولم يفُته نطقًا ، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦] .

ثم بيَّن رحمه الله سبب تأليف هذه الرسالة الموجزة وأن ذلك كان بسبب أنَّ سائلًا طلب منه رسالةً يعجِّل فيها المنفعة وتكون مختصرة وجامعة ؛ فكتب رحمه الله هذه الرسالة مع دعواتٍ لمن طلب منه ودعواتٍ لعموم المسلمين ، وهذا من جميل نصحه وحسن بيانه رحمه الله تعالى .

ولعلك بهذا الاستهلال تدرك أن هذه الرسالة عبارة عن وصية جامعة تجمع لك سلامة الدين والدنيا وفيها نفع لك في أولاك وأخراك ، وجاء بها رحمه الله مختصرة ونبَّه أنه يستدل بأبوابها على مفهوم خطابها ، وهذا يدل على أن أبواب الرسالة الأربعة التي اشتملت عليها حُررت باعتناء وجُمعت شواهدها ودلائلها بدقة وعناية .

بَابُ نَجَاةِ الْإِنْسَانِ بِالصَّمْتِ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

١ – حَدَّثَنَا أَبُو الْفَتْحِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْفَوَارِسِ الْحَافِظُ – إِمْلَاءً – أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ الصَّوَّافُ، قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بنِ أَحْمدَ بنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى حَدَّثَنِي ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ صَمَتَ نَجَا))

****

قال رحمه الله تعالى ((**بَابٌ نَجَاةِ الْإِنْسَانِ بِالصَّمْتِ وَحِفْظِ اللِّسَانِ**)) هذا الباب عقده رحمه الله تعالى لبيان عظم شأن اللسان وخطورته ؛ وذلك أن اللسان عليه المدار وهو ملاك أمر العبد ، فمتى ملك العبد لسانه ملك جميع أعضائه ، ومتى ملكه لسانه فلم يصُنه هلك وهلكت تبعًا لذلك جميع أعضائه ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ ؛ فَتَقُولُ : اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا))[1] ، فاللسان مِلاك الأمر وعليه المدار ، فمن صان لسانه وحفظه فقد حفظ نفسه وصانها ، ومن أطلق للسانه العِنان وتركه يتكلم بدون قيد أو شرط أهلك نفسه وأعطبها ولهذا قال: ((**نَجَاةِ الْإِنْسَانِ بِالصَّمْتِ وَحِفْظِ اللِّسَانِ**)) ؛ أما أن نجاته بالصمت فهذا منصوص الحديث الذي صدَّر به رحمه الله تعالى هذه الترجمة ، وأما أن النجاة بحفظه أي عندما يتكلم –والمراد بحفظه أي مما يسخط الله ويغضبه جلَّ في علاه– فهذا تأتي شواهده ودلائله التي ساقها رحمه الله تعالى .

أورد رحمه الله في صدر هذه الترجمة حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**مَنْ صَمَتَ نَجَا**)) ؛ والمراد بـ«صمت» : أي سكت ومنع نفسه من الكلام ، وليس المراد بالمنع منع النفس من الكلام أي مطلقًا لا يتكلم ؛ هذا ليس مطلوب شرعا ، ليس مطلوب شرعًا أن يصمت عن الكلام بما في ذلك ذكر الله وحمده والثناء عليه وغير ذلك هذا ليس مطلوب شرعًا بل هذا فيه مخالفة للشرع ، لكن الصمت المطلوب الصمت عن الشر عن السوء ، والصمت كذلك عما يشتبه على الإنسان لا يدري أهو خير أو شر .

وما يريد أن يتكلم به الإنسان لابد أن يتفكر فيه قبل الكلام ؛ فإن تبين أنه خير بين تكلم به ولا حرج ، وإن تبين أنه شرٌ بيِّن منع نفسه من التكلم به ، وإن لم يتبين له أهو خيرٌ أو شر فإنه أيضًا يمنع نفسه من التكلم به لقوله عليه الصلاة والسلام:((فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ))

ثم إن الإنسان عملًا بهذا الحديث لو منع نفسه مما لا باس به من مباح الكلام خشية أن يزل أو يخرج منه كلمة لم ينتبه لها لم يلقِ لها بالًا فآثر الصمت على الكلام ففعله هذا يُعد نجاةً ، لكن أعلى منه رتبة وخير منه منزلة من يتكلم لكنه يضبط كلامه ، فإذا تكلم بخيرٍ ونصحٍ ونفعٍ وإفادة فكلامه غنيمة ، وإذا سكت فسكوته سلامة ، وإذا تكلم بشر فكلامه هلكة ؛ فصارت ثلاثة منازل : غنيمة وسلامة وهلكة ، خير هذه المنازل منزلة الغنيمة ؛ أن يتكلم بما يُنتفع به بما يفيد الناس وينفعهم في دينهم ودنياهم كما قال رحمه الله تعالى في نصحه للسائل : ((رسالة تنفعك في أولاك وأخراك)) ، عندما يتكلم الإنسان أو حتى يكتب من خلال الوسائل الحديثة التي استجدَّت في هذا الزمان وهي متنوعة وكثيرة وأصبح لابد أن يكون لكثير من الناس مشاركة فيها يومية وربما مرات كثيرة في اليوم ، فهذا الذي يُكتب هو جزء من كلامك الذي يحاسبك الله عليه يوم تقف بين يديه ، وإن كان بعض الناس ربما كتب من خلال هذه الوسائل باسمٍ مجهول على الناس وهو لا يخفى على رب العالمين ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨] وإن استخفى من الناس باسم مجهول فالله مطلع عليه وعليمٌ بما يقول ، وسيرى حصاد ما كتب وتكلم به يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى .

قال سفيان الثوري رحمه الله : «الصمت زين العالم وستر الجاهل» ؛ الصمت زين العالم : أي جمال له . وستر الجاهل: أي أن جهله لا يظهر ، لكن لو خاض في المجالس وترك لنفسه الكلام والخوض في الأمور والمسائل تبين ما يحمله من جهل ، ولو صمت لنجا وسلِم في الوقت نفسه . وقوله عليه الصلاة والسلام ((**مَنْ صَمَتَ نَجَا**)) أي سلِم تحققت له السلامة وأمِن من الهلكة ، والمقصود بالصمت أي الصمت عن الكلام فيما لا يعنيه وفيما يضره يوم يلقى الله سبحانه وتعالى .

٢/ حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بِشْرَانَ السُّكَّرِيُّ الْمُعَدَّلُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، قَالَ حَدَّثَنَا الرَّمَادِيُّ ، قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))

****

أورد رحمه الله تعالى هنا حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**)) ؛ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ذكر أولًا الإيمان بالله الذي هو سبحانه وتعالى المقصود المعبود الملتجأ إليه جل في علاه ، واليوم الآخر الذي هو يوم الجزاء والحساب ، ثم ذكر ما يقتضيه هذا الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر قال: ((**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**)) ، ومعلوم أن المتكلم لا يمكن أن يتكلم بهذا الانضباط لا يقول إلا خيرًا إلا إذا كان يزن كلامه قبل أن يتكلم به ويتفكر في كلامه ويتأمل قبل أن يتكلم به ، أما من لا يزن كلامه ويتكلم رأسًا بما يرد في ذهنه دون تفكر وتأمل لاشك أنه سيخرج منه من الكلام الآثم والقول الخاطئ شيء كثير وربما لا يُلقي لذلك بالًا ولا يضرب له حسابًا ، وهذا الذي أهلك أكثر الناس وأوردهم المهالك ، وإذا كان السلف في احترازهم وحرصهم مع عظم حفظهم لألسنتهم يقول القائل منهم كما يُنقل عن عبد الله ابن مسعود وغيره «هذا الذي أوردني الموارد ، ما على الأرض أحوج من طول سجن من اللسان» ونحو ذلك الكلام وهم من أحسن الناس صيانةً لألسنتهم وحفظًا لها وفي الناس من لا يبالي ولا يعتني بلسانه ولا يحرص على صيانته والعناية به .

إذًا قوله ((فليقل خيرا)) هذا فيه دعوة إلى أن تتأمل في كلامك هل هو خير أو شر ، فإن تبين أنه خير قل هذا الكلام الذي زوَّرته في نفسك ، وإن تبين أنه شر فاحذر أشد الحذر لأنه سيدخل في سيء عملك ويحاسبك الله سبحانه وتعالى عليه ، وإن اشتبه عليك فكما تقدم ((فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ)) .

قال : ((**فَلَيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**)) أي ليمنع نفسه من التكلم بهذا الكلام الذي أراد أن يقوله ولم يتبين له أنه خير ، فالواجب أن يصمت ما لم يتبين له أن الكلام الذي سيتكلم به خيرا ، ولهذا قال العلماء : ليس الكلام مأمورٌ به على الإطلاق ولا السكوت كذلك –أي منهي عنه على الإطلاق– بل لابد من الكلام بالخير ولابد من السكوت عن الشر . وكان السلف يمدحون الصمت عن الشر وعما لا يعني لشدته على النفس ، أمرٌ شديد على النفس أن يصمت الإنسان عن الشر أو يمنع نفسه من التكلم فيما لا يعنيه ، فكانوا يمدحون من كان كذلك لأن كثير من الناس يقع في هذا الأمر ولا يصون نفسه من الوقوع فيه إلا من وفقه الله سبحانه وتعالى وأعانه . قال شيخ الإسلام رحمه الله : «فَالتَّكَلُّمُ بِالْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ السُّكُوتِ عَنْهُ ، وَالصَّمْتُ عَنْ الشَّرِّ خَيْرٌ مِنْ التَّكَلُّمِ بِهِ ، فَأَمَّا

الصَّمْتُ الدَّائِمُ فَبِدْعَةٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا» انتهى كلامه رحمه الله تعالى . ومما يُنقل عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «يا لسان قُل خيراً تغنم أو أسكت عن سوء تسْلم من قبل أن تندم».

هذا الحديث انتظم أمران : إما تكلم بخير ، أو سكوت عما سوى ذلك ؛ ولابد من المراقبة مراقبة الله في التكلم وكذلك في السكوت فيهما معًا ؛ إذا تكلمت فاذكر سمع الله لك ، وإذا سكت فاذكر نظره سبحانه وتعالى إليك لتكون متقيًا لله في سكوتك وفي كلامك .

٣/ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ السُّكَّرِيُّ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، قَالَ حَدَّثَنَا عَبَّاسٌ الدُّورِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا أبوعاصم، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ)).

****

هذه رواية أخرى لحديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيها قال: ((**أَوْ لِيَسْكُتْ**)) بدل قوله «أو ليصمت» ؛ قَالَ الرَّاغِبُ : «الصَّمْتُ أَبْلَغُ مِنْ السُّكُوتِ لِأَنَّهُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ فِيمَا لَا قُوَّةَ لَهُ لِلنُّطْقِ وَفِيمَا لَهُ قُوَّةٌ لِلنُّطْقِ ، وَلِهَذَا قِيلَ لِمَا لَا نُطْقَ لَهُ الصَّامِتُ» ، كان العرب يفرِّقون بين الأموال ويقسِّمونها إلى قسمين أموال صامتة وأموال ناطقة ، يقصدون بالأموال الناطقة: مثل بهيمة الأنعام كل ما كان له صوت من المال ، ويقصدون بالصامت: أي الذهب والفضة ونحو ذلك من الأموال التي ليس لها صوت وليس لها كلام ؛ فيقولون مالٌ صامت ومالٌ ناطق ، والتعبير عن المال الذي لا صوت له بأنه صامت جاء في الحديث في صحيح البخاري وصحيح مسلم في حديث أبي هريرة لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الغلول وعظَّم أمره قال : ((لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ)) وذكر أيضًا البقرة وذكر الشاة وذكر الجمل ثم قال : ((لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ)) ، والمراد بقوله « لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ» أي المال الصامت مثل ذهب أو فضة استلبها وغلَّها في الحياة الدنيا فإنه يأتي والعياذ بالله يحمل ما غلَّ فوق عنقه يوم القيامة ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران:١٦١] .

٤- أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَضْلِ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْحَارِثِ التَّمِيمِي رَحِمَهُ اللَّهُ ، قَالَ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْفَقِيهُ النَّجَّادُ، قَالَ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ يَزِيدَ بن حَيَّان، عَنْ عَنْبَسِ بْنِ عُقْبَةَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحْوَجُ إِلَى طُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ))

****

هذا أثرٌ عظيم أورده المصنف رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقسم فيه رضي الله عنه وأرضاه بالله الذي لا إله إلا هو أنه ما على وجه الأرض أحوج إلى طول سَجنٍ من اللسان ؛ وذلك لعظم خطورة اللسان ، وأن اللسان إن أطلق له صاحبه العِنان يتكلم متى شاء بما شاء بدون ضابط وبدون قيد فإنه يُهلك صاحبه ، لأن كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من ذكرٍ لله وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن منكر وما والى ذلك ، أما إذا كان يتكلم بدون قيد فيخرج منه كلامًا محرمًا كلامًا منهيًا عنه فهذا من أخطر ما يكون مضرة على الإنسان وهلكةً له في دنياه وأخراه ، ولهذا يقسم هذا القسم ليبين خطورة اللسان بأنه ليس على وجه الأرض أحوج إلى طول سجن من اللسان ، ومراده بطول السَّجن: أي منع اللسان من إخراج الكلام إلا إذا تبيَّن له سلامته وأنه خيرٌ لا شر فيه فإنه يتكلم ، وما سوى ذلك يطبِق عليه ويمنعه من الخروج ، وقد أُعِين على سجنه للسانه ومنعه من التكلم بطباقين ؛ الأسنان والشفتين ، كل هذه حواجز ، الأسنان والشفتين كلها تحجز الكلام وتمنع الكلام فلا يخرج من الكلام إلا الكلام الذي يتحقق أنه خيرٌ لا شر فيه وما سوى ذلك فليحبس لسانه وليمنعه من الكلام صيانةً لنفسه من الهلكة .

٥/ أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ رزقويه الْبَزَّاز، أخبرنَا إِسْمَاعِيل بن مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمد الزبيرِي قَالَ حدثنَا عمرو بن عَبْدِ اللَّهِ النَّخَعِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ مَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ابْنَ جَبَلٍ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟))

****

أورد هنا هذا الحديث العظيم حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وهو حديثٌ طويل ذكر المصنف منه موضع الشاهد ، والحديث بطوله هو أحد أحاديث الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى ، واقتصر المؤلف رحمه الله تعالى على تمام الحديث وآخره وهو موضع الشاهد منه لهذه الترجمة .

قال : ((**عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ مَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟»**)) هل يحاسبنا الله يوم نقف بين يديه على جميع الكلام الذي تكلمنا به في حياتنا الدنيا؟ كل هذا سنحاسب عليه ؟

هذا السؤال من معاذ مبني على كلام من النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، في آخر وصاياه قال عليه الصلاة والسلام ((أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟)) ، لما أعطاه الوصايا الجامعة والنصائح البليغة ختم ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله : ((أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟)) قال «قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ» ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: ((كُفَّ

عَلَيْكَ هَذَا)) هذا ملاك الأمر قال «فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟» ، لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) يعني إذا كفَّيت اللسان ومنعته فهذا ملاك الأمر ، ما معنى ملاك الأمر؟ يعني أن الزمام أصبح بيدك وأنت الذي تملك ، ولهذا يقولون : الكلمة قبل أن تتكلم بها تملكها ، وإذا تكلمت بها ملكت وأصبحت متحملًا تبعة هذه الكلمة ، بينما إذا مسكت الكلام وصُنت نفسك عن الخوض فيما لا يعني أو فيما هو محرم فإنك أخذت بملاك الأمر وأخذت بالزمام –زمام الأمر– ولهذا جاء معاذ رضي الله عنه بهذا السؤل ؛ قال «فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟» فَقَالَ : ((**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ابْنَ جَبَلٍ**)) ومعنى ثكلتك أي فقدتك ، وهذا من الكلام الذي يطلق ولا يراد حقيقته ، يعني ظاهره الدعاء ولا يراد حقيقته .

يقول عليه الصلاة والسلام : ((**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**)) قال «حصائد ألسنتهم» يعني ما يقتطعه من الكلام ، ما يقتطعه من الكلام شبّه بما يُحصد من الزرع إذا جُز ، فإذا تكلم الإنسان كأنه وضع بذورًا حصادها يجده يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى .

هنا يأتي المحك في الامتحان لأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان ، وكلنا يعلم أن الكلام لدى جميع الناس في كثير من المجالس نوع من الفاكهة ، نوع من تمضية الوقت ، نوع من التسلية ، وهذا أمر تطلبه النفوس تريده ؛ ولهذا يجتمع الناس على هذه الفاكهة «الكلام» ، ويجلس بعضهم الساعتين الثلاث الأربع يتكلمون يتكلمون ويشعر بأنه بكلامه هذا يتفكَّه ويتمتع ويتلذذ ، فهو أمر تطلبه النفس ، النفس تشتهيه ، وهنا يأتي الامتحان كيف يستطيع الإنسان أن يضبط نفسه وهو سيؤاخذ يوم القيامة بكل ما يتكلم به ؟ استمعوا جيدًا إلى كلام عظيم جدًا للإمام الناصح المربي ابن القيم رحمه الله ؛ يقول رحمه الله : « فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضًا وتصريحًا وحكاية كلام الناس[٢] والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك ، فتتفق قوة الداعي وتيسُّر حركة اللسان فيضعُف الصبر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ: ((امسك عليك لسانك)) فقال: "وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟" فقال صلى الله عليه وسلم ((وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)) ، ولاسيما إذا صارت المعاصى اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها ؛ ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والمفكهة في أعراض الخلق» انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

٦/ أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ عَبْدُ الْغَفَّارِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ الْمُؤَدِّبُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيِّ بْنُ الصَّوَّافِ، قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ

[٢] يعني يحاكي كلام فلان وكلام فلان على سبيل التندُّر والتفكُّه .

عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ وَيُونُس بن عُبَيْدٍ وَحُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))** ، ويراد بالمسلم : أي كامل الإسلام ، ومعلوم أن الدين مراتب: إسلام ، وأعلى منه إيمان وأعلى منه الإحسان ؛ مسلم وأعلى منه المؤمن وأعلى منه المحسن ، وقد جُمعت هذه المراتب الثلاثة في حديث جبريل المشهور عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان فبُين في ذلك الحديث العظيم كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث ؛ فهذا بيانٌ للمسلم كامل الإسلام أنه من سلِم المسلمون من لسانه ويده . فالإسلام معه السلامة ، فإذا كان مسلم كامل الإسلام لا يؤذي أحد لا بلسانه ولا بيده ، ما معنى ذلك؟ أن نقص ذلك فيه بمعنى أنه يوجد منه أذى قولي أو فعلي تجاه إخوانه المسلمين فهذا دليلٌ على نقص إسلامه ، يقول ابن تيمية رحمه في شرحه هذا الحديث « أَيْ هَذِهِ صِفَةُ الْمُسْلِمِ فَمَنْ خَرَجَ عَنْهَا خَرَجَ عَنْ الْإِسْلَامِ وَمَنْ خَرَجَ عَنْ بَعْضِهَا خَرَجَ عَنْ الْإِسْلَامِ فِي ذَلِكَ الْبَعْضِ» ، بمعنى أنه إذا كان يوجد منه أذى قولي لإخوانه المسلمين أو أذى فعلي لإخوانه المسلمين فهذا نقص في إسلامه .

فإذًا المسلم الكامل الإسلام هو من سلِم المسلمون من لسانه ويده ، ورتبة الإيمان أعلى من هذه الرتبة حتى في هذا الباب ، ولهذا الحديث في بعض رواياته له تتمة قال : «المسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» ، ولاشك أن من يكون في قلوب الناس أمنٌ من جهته يأتمون على أموالهم ويأتمنونه على دمائهم لاشك أن هذه رتبة أعلى من رتبة شخص المسلمون قد سلِموا من لسانه ويبده بمعنى أنه لا يطالهم منه شر ولا ينالهم منه أذى ، ففسَّر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس من لسانه ويده ، وفسَّر المؤمن بأمرٍ باطن وهو أنهم يأمنون على دمائهم وأموالهم ، ولاشك أن الصفة الثانية وهي لأنهم يأمنونه على دمائهم وأموالهم أعلى من الصفة الأولى.

٧/ أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ السِّمْسَارُ الْحُرْفِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَلْمَانَ النَّجَّادُ، أَخْبَرَنَا هِلَالُ بْنُ الْعَلَاءِ، قَالَ حدثنا عَمرو بْنُ عُثْمَانَ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ أَعْيَنَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُقَيْلٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ وَرِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ))

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:((**مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ**)) ؛ وهذا موضع الشاهد من سياق هذا الحديث في هذه الترجمة . قال : ((مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ)) والمراد بـ«فقميه» أي لحييه ، ولهذا جاء في بعض الروايات ((من حفظ ما بين لحييه)) أي حفظ فمه ولسانه من التكلم بالحرام وقول الحرام وصانه عن ذلك كله فإن ذلك من موجبات دخول الجنة .

((**مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ وَرِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**)) والمراد بقوله «ورجليه» أي حفظ فرجه من نحو الزنا واللواط والسحاق وغير ذلك ، قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المعارج:٢٩-٣١] .

٨/ أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بْنُ رَامِشٍ ، قَدِمَ عَلَيْنَا الْحَجَّ ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ شَيْبَانَ الْمُعَدَّلُ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ اللَّيْثُ بن سعد: مروا بِرَاهِبٍ فَنَادَوْهُ فَلَمْ يُجِبْهُمْ، ثُمَّ عَادُوا فَنَادَوْهُ فَلَمْ يُجِبْهُمْ ، فَقَالُوا لَهُ: لِمَ لَا تُكَلِّمُنَا؟ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ إِنَّ لِسَانِي سَبُعٌ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أُرْسِلَهُ فَيَأْكُلَنِي.

****

ثم أورد هذا الخبر عن الليث بن سعد في ذِكر خبر الراهب ، والمراد بالرهبان عبَّاد النصارى ، ومعنى ذلك أنهم مروا براهب متعبد منقطع للعبادة في صومعته ((**فَنَادَوْهُ فَلَمْ يُجِبْهُمْ**)) يعني لم يكن عنده رغبة في التكلم وفي الحديث، فلما ألحُّوا عليه ((**فَقَالُوا لَهُ: لِمَ لَا تُكَلِّمُنَا؟ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ إِنَّ لِسَانِي سَبُعٌ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أُرْسِلَهُ فَيَأْكُلَنِي**)) ؛ «أن أرسله» أي أن أتركه يتكلم هكذا ، فيأكلني: أي يهلكني وأتحمل تبعات عظيمة فيما أقوله من كلام .

ومثل هذه الأخبار يوردها أهل العلم على سبيل الاستئناس لا على سبيل الاعتماد ، العمدة الأحاديث التي تقدمت وكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، لكن مثل هذه الحكايات والأخبار يوردونها على سبيل الاستئناس بها . ومما روي في هذا المعنى عن الفضيل ابن عياض قال : «قيل لحذيفة رضي الله عنه ما لك لا تتكلم ؟ قال: إن لساني سبُع أتخوف إن تركته يأكلني» ، «وقيل لبعض العلماء إنك تطيل الصمت؟ فقال إني رأيت لساني سبُعًا عقورًا أخاف أن أخلِّي عنه فيعقرني »

٩- وَأَنْشَدُوْنَا فِي مَعْنَاهُ:

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ*لَا يَقْتُلَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ.**

كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ*كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الْفُرْسَانُ.**

****

أورد هذا البيت في معنى ما تقدم أي أن اللسان سبُع ويخشى على صاحبه إن أرسله وأطلق له العِنان أن يهلكه أنشدوا في هذا المعنى : ((**احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ**)) أي صُنه من التكلم فيما لا يعنيك ، من التكلم فيما حرم الله سبحانه وتعالى عليك .

((**لا يَقْتُلَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ**)) أي إنك إن أطلقت له العنان تتكلم بدون ضابط فإنه يقتلك ويصيبك بمقتل ويهلكك فاحذر ذلك أشد الحذر .

ثم بيَّن أن في المقابر خلقٌ كثيرون هم من قتيلي اللسان لأنهم لم يصونوا ألسنتهم في حياتهم الدنيا ، وهم أيام حياتهم لهم هيبة ولهم سطوة ولهم مكانة عند الناس لكنهم بعد أن غادروا هذه الحياة أصبحوا قتيلي ألسنتهم لأنهم كانوا يتكلمون بألسنتهم بلا ضابط ودون رعاية ولا صيانة لألسنتهم .

١٠- أَنْشَدَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْمُظَفَّرِ بْنِ بَدْرٍ الشَّافِعِيُّ الْبَنْدَنِيجِيُّ – بِهَا – أَنْشَدَنَا أَبُو النُّعْمَان عَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ أُحْمَدَ النَّجْلِيُّ، أَنْشَدَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ بِسْطَامٍ لِأَبِي نُوَاسٍ:

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرَامٍ وَامْضِ عَنْهُ بِسَلَامٍ ...

مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ...

رُبَّمَا اسْتُفْتِحَ بالقول مَغَالِيقُ الْحِمَامِ...

رُبَّ قَوْلٍ سَاقَ آجال قِيَامٍ وَقِئَامِ...

إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ ألجم فَاهُ بِلِجَامِ...

****

أورد هذه الأبيات لأبي نواس ، وله ديوان مطبوع وله أبيات وعظية ومنها هذه الأبيات يقول فيها :

((**خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرَامٍ وَامْضِ عَنْهُ بِسَلَامٍ**))؛ ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾[الفرقان:٧٢] ، «ولقد أمر على السفيه يسبُّني فأمر ثمة وأقول لا يعنيني» ؛ فخل جنبيك لرامي إن مررت بإنسان سفيه أو سليط اللسان أو جريء على التلفظ بالكلام البذيء لا تقف عنده ولا تجاريه في سفهه وإنما امضِ بسلام امضِ بكرم ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾[الفرقان:٧٢] ، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾[الفرقان:٦٣] ، فيقول ((**خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرَامٍ وَامْضِ عَنْهُ بِسَلَامٍ**)) .

((**مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ**)) ؛ مت بداء الصمت : أي الصمت عن السوء وعن الشر وعن السباب وعن البذاء ونحو ذلك ، خير لك من داء الكلام: أي الكلام بالشر ؛ لأن هذا هو الداء أما الكلام في الخير فهو دواء وليس بداء ، ومراده بقوله «خير لك من داء الكلام» أي سيء الكلام ، فصمت الإنسان عن الشر خير من تكلمه به أن يموت على ذلك خير له من أن يموت وقد تكلم بكلمات هي شرور وآفات فيتحمل تبعتها وتكون عليه حسرة وندامة .

((**رُبَّمَا اسْتُفْتِحَ بالقول مَغَالِيقُ الْحِمَامِ**)) وهذا فيه تبيان لخطورة الكلام وأنه ربما نشأت مقاتل وحروب طاحنة بسبب الكلام والتكلم ، فالكلام أمره خطير ليس بالهين ولا بالسهل .

((**رُبَّ قَوْلٍ سَاقَ آجال قِيَامٍ وَفِئَامٍ**)) ؛ وفي ديوانه « رُبَّ قَوْلٍ سَاقَ آجَال نِيَامٍ وقِيَامٍ» أي كم من أناس كانت آجالهم بسبب الكلام ، تكلم بكلمة فكان بها موته ومثلا الاعتداء عليه أو قتله أو قتل وقتل آخرين بسبب كلمته، كم من الشرور العظيمة التي تنشب في المجتمعات وعلى مستوى الأفراد والجماعات بسبب الكلام .

((**إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ ألجم فَاهُ بِلِجَامٍ**)) والمراد باللجام المعنوي لا الحسي ، ألجمه بلجام معنوي بأن يمنع نفسه عن التكلم فيما فيه مضرة عليه وفيما هو إثم وباطل .

١١- وَأُنْشِدْنَا أَيْضًا:

أَنْتَ مِنَ الصَّمْتِ آمِنُ الزَّلَلِ*وَمِنْ كَثِيرِ الْكَلَامِ فِي وَجَلِ...**
لَا تَقُلِ الْقَوْلَ ثُمَّ تُتْبِعُهُ*يَا لَيْتَ مَا كُنْتُ قُلْتُ لَمْ أَقُلِ...**

****

هذا أيضا من جميل وعظه ونصحه في أبياته يقول : ((**أَنْتَ مِنَ الصَّمْتِ آمِنُ الزَّلَلِ**)) إذا لم تتكلم قد أمنت من الوقوع في الزلل .

((**وَمِنْ كَثِيرِ الْكَلَامِ فِي وَجَلِ**)) ؛ إذا كنت تتكلم تصبح في وجل أنك تتحمل تبعات كلام لم تنتبه له مع كثرة كلامك ، إذا كنت كثير الكلام فأنت في وجل أما مع الصمت فأنت آمنٌ من الزلل .

ثم ينصح هذه النصيحة يقول: امنع نفسك من الكلام خير من أن تتكلم ثم بعد ما تنهي من الكلام تقول ليتني ما قلت هذه الكلمة ، ليتني ما تكلمت ، وتأخذ مع نفسك في تأسف وفي ندامة وفي اعتذار مثلا للآخرين ؛ ((**لَا تَقُلِ الْقَوْلَ ثُمَّ تُتْبِعُهُ يَا لَيْتَ مَا كُنْتُ قُلْتُ لَمْ أَقُلِ**)) كثير هذه تأتي على ألسنة الناس ، بينه وبين نفسه أحيانا وأحيانا مع الآخرين يتصل ويرسل : أنا أعتذر ما كنت أقصد ، وليتني ما تكلمت ، ليتني ما حضرت المجلس الفلاني ، صدر مني كلام ما أحببت أن أقوله ؛ هذا كثير يأتي على ألسنة الناس . إذًا من الخير للإنسان أن لا يتكلم إلا بكلام يطمئن إليه ، يرتاح ، يأنس به ، يسعد به ، أما أنه يطلق للسانه العِنان يتكلم ويتكلم بما

شاء هذا مهلكة عليه ومضرة في دنياه وأخراه ، ومن أجمل ما ورد في ذلك «إياك وما يُعتذر منه» معنى ذلك : امنع نفسك من الكلام حتى لا تحتاج أصلًا للاعتذار والتأسف للزلل الذي كان في كلامك .

١٢- وَأُنْشِدْنَا أَيْضًا:

اسْتُرِ الْعِيَّ مَا اسْتَطَعْتَ بِصَمْتٍ*إِنَّ فِي الصَّمْتِ رَاحَةً لِلصَّمُوتِ**

وَاجْعَلِ الصَّمْتَ إِنْ عَيِيتَ جَوَابًا*رُبَّ قَوْلٍ جَوَابُهُ فِي السُّكُوتِ**

****

وأيضًا من جميل نصحه يقول : ((**اسْتُرِ الْعِيَّ**)) والعي: الجهل .

((**اسْتُرِ الْعِيَّ مَا اسْتَطَعْتَ بِصَمْتٍ إِنَّ فِي الصَّمْتِ رَاحَةً لِلصَّمُوتِ**)) يرتاح الصامت الذي لا يتكلم إلا بكلام متزن وكلام منضبط ، ومن يطيل الصمت يؤتى الحكمة لأن الكلام الذي يقوله يخرج منه باتزان واعتدال وانضباط وتروي وتفكر ، فيقول ((**إِنَّ فِي الصَّمْتِ رَاحَةً لِلصَّمُوتِ**)) .

((**وَاجْعَلِ الصَّمْتَ إِنْ عَيِيتَ جَوَابًا**)) إذا لم يكن عنك جواب ((**اجْعَلِ الصَّمْتَ إِنْ عَيِيتَ جَوَابًا رُبَّ قَوْلٍ جَوَابُهُ فِي السُّكُوتِ**)) ؛ ما كان عندك معرفة الصمت اجعله جوابًا للسؤال الذي تُسأل عنه ، أما أن الإنسان مثلا يُسأل وليس عنده علم ولا بينة ثم يتكلم !! الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦] .

١٣- وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: مَثَلُ الْكَلِمَةِ كَالسَّهْمِ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ، وَإِنَّمَا جُعِلَ لِلْإِنْسَانِ لِسَانٌ وَاحِدٌ وَأُذُنَانِ، حَتَّى يَكُونَ مَا يَسْمَعُ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَكَلَّمُ، وَهُوَ عَلَى رَدِّ مَا لَمْ يَقُلْ أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَى رَدِّ مَا قَدْ قَالَ .

قال رحمه الله : ((**وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: مَثَلُ الْكَلِمَةِ كَالسَّهْمِ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ**)) واضح المثل ؟ عندما يكون الإنسان بيده سهم ويرمي به ثم يجد أنه مثلا ولم يقصد قد اتجه هذا السهم إلى إنسان هو لا يريد أن يقتله ، هل يستطيع أن يرد السهم وهو في طريقه للإنسان؟ الكلمة مثل السهم إذا خرجت من لسانك فهي مثل السهم ما تستطيع أن تسترجعها لأنها خرجت انتهت ، كنت تملكها قبل أن تخرج ، لكن بعد أن خرجت وانطلقت من لسانك فمثلها كمثل السهم إذا انطلق لا يمكن لصاحبه أن يرده ، هذا كلام حكمة ؛ ((**مَثَلُ الْكَلِمَةِ كَالسَّهْمِ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ ، وَإِنَّمَا جُعِلَ لِلْإِنْسَانِ لِسَانٌ وَاحِدٌ وَأُذُنَانِ، حَتَّى يَكُونَ مَا يَسْمَعُ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَكَلَّمُ ، وَهُوَ عَلَى رَدِّ مَا لَمْ يَقُلْ أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَى رَدِّ مَا قَدْ قَالَ**)) هذا واضح الشيء الذي لم تقله أنت في عافية وفي فسحة وقادر على رده، لكن إذا ذهب الكلام فيعسر رده لأن تحملت من ورائه تبعات وتبعات .

هذا الكلام الذي أضافه إلى بعض الحكماء موجود بنحوه في كتاب «روضة العقلاء» لأبي حاتم ابن حبان البستي رحمه الله تعالى ، و«روضة العقلاء» على اسمه روضة مليئة بالفوائد الثمينة جعله في خمسين بابًا كل باب منها روضة مستقلة للعقلاء ، فيه من الحكم البديعة والفوائد الثمينة الشيء الكثير ، يقول أبو حاتم في روضة العقلاء : «الواجب على العاقل أن يُنصف أذنيه من فيه ، ويعلم أنه إنما جُعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مما يقول ، لأنه إذا قال ربما ندم ، وإن لم يقل لم يندم ، وهو على رد ما لم يقل أقدر منه على رد ما قال ، والكلمةُ إذا تكلَّم بها ملكته ، وإن لم يتكلم بها ملكها ، والعجب ممن يتكلم بالكلمة ، إن هي رُفِعتْ ربما ضَرَّته، وإن لم تُرفع لم تضره ، كيف لا يصمت ؟ ورُبَّ كلمة سَلبتْ نعمة! » انتهى كلامه رحمه الله .

١٤- وَأُنْشِدْنَا أَيْضًا:

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ*وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ**

فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تُذْهِبُ نَفْسَهُ*وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَى عَلَى مَهْلِ**

****

ثم أورد رحمه الله هذين البيتين في خطورة عثرة اللسان وأنها أخطر من عثرة القدم قال : ((**يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ**)) يعني ربما أن كلمة يقولها تكون سببا لهلاكه وموته .

((**وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ ؛ فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ**)) أي من لسانه من فمه ((**فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تُذْهِبُ نَفْسَهُ وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَى عَلَى مَهْلِ**)) إذا عثر وانكسرت رجله أو أصيبت بنوع من الإصابة فإنها تبرأ على مهل ، أما عثرة اللسان فإنه مهلكة لصاحبها .

قال ابن القيم رحمه الله في الجواب الكافي : «وَلَمَّا كَانَتِ الْعَثْرَةُ عَثْرَتَيْنِ : عَثْرَةَ الرِّجْلِ وَعَثْرَةَ اللِّسَانِ، جَاءَتْ إِحْدَاهُمَا قَرِينَةَ الْأُخْرَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [سُورَةُ الْفُرْقَانِ:٦٣] [٣] ، فَوَصَفَهُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي لَفْظَاتِهِمْ وَخُطُوَاتِهِمْ » .

بَابُ السُّكُوتِ وَلُزُومِ الْبُيُوتِ

١٥- أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الرَّزَّازُ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ الشَّافِعِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ زُهَيْرٍ الضَّبِّيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَيُّوبَ،

[٣] فالمشي الهون فيه السلامة من عثرة الرجل ، وإذا خاطبهم الجاهلون فيه السلامة من عثرة اللسان ، فجُمع هنا في هذه الآية في وصف عباد الرحمن السلامة من العثرتين عثرة الرجل وعثرة اللسان.

عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زَحْرٍ، عَنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه : قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَاةُ ؟ قَالَ: «امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»

****

ثم أورد هذا الحديث حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه : «**قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا النَّجَاةُ؟**» ؛ هذا سؤال عظيم جدًا وكان في مقدمة أولويات الصحابة رضي الله عنهم ، وثمة في الأحاديث أحاديث كثيرة فيها هذا السؤال ؛ ما النجاة ؟ ما نجاة الأمر ؟ ووقع في نفسي الآن لو أن أحدًا من طلبة العلم يجمع الأحاديث الواردة في هذا المعنى ؛ ما هي نجاة الأمر ؟ سألت رسول الله عن النجاة ، ورد في هذا المعنى أحاديث عدة فلو جُمعت في موضع واحد واستخلصت هذه المعاني التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم في بيان نجاة الأمر .

«**مَا النَّجَاةُ؟**» هذا يدل على شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم ، حرصهم على النجاة يريدون لأنفسهم السلامة ، يريد الواحد منهم أن ينجو أن يسلم أن لا يتورط لا بأمر يتعلق بلسانه ولا بأمر يتعلق بيده لا أن ينال أحد منه أي مظلمة يريد النجاة لنفسه ؛ فيقول عقبة ابن عامر : «**قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا النَّجَاةُ؟**» ما الذي أنجو به؟ ما الذي تكون به نجاتي يوم ألقى الله سبحانه وتعالى ؟ سبحان الله إذا كان هذا المطلَب قائم في النفس ، نفس الإنسان تريد النجاة تخاف من اللقاء – لقاء الله سبحانه وتعالى– ويريد ما يكون به نجاته في ذلك اليوم تبدأ مثل هذه الأسئلة ويبدأ أيضا الحرص العظيم على ما تكون به السلامة ، بخلاف من يمشي وهو لا يضرب حسابًا لأمر النجاة ولا يفكر في أمر النجاة يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى .

قَالَ: ((**امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ**)) وهذا نظير ما جاء في حديث معاذ المتقدم قال «ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ املك عليك لسانك» أي ليكن أمر لسانك وما يتكلم به لسانك أمرٌ تملكه ، تضبطه ، تصونه ، تحرص على ألا يخرج منك أي كلام فيه مضرة عليك وهلكة لك ((املك عليك لسانك)) أي جاهد نفسك على صيانة اللسان وحفظه ومنعه من كل ما حرَّم الله سبحانه وتعالى وما يسخِطه جل في علاه ؛ هذا الأمر الأول من أسباب النجاة.

الأمر الثاني : ((**وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ**)) أي لازم البيت ولا يكن خروجك منه لما فيه مصلحة دينية أو دنيوية ، وإذا خرجت قل الدعاء المأثور «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» ، لأنك في كل مرة تخرج من بيتك هذه الأشياء كلها متوقعة ويُخشى عليك منها ، إما أن لا يحصل لك سلامة من الناس ، أو لا يحصل للناس السلامة منك ، فهذه كلها أشياء يخشى على الناس منك أن يقع شيء منك تجاههم ، أو العكس أيضا يُخشى عليك من الناس .

فإذًا ((وليسعك بيتك)) بمعنى أن الإنسان يلزم بيته ولا يكن خروجه ، ليس هذا امتناع من الخروج بل من الخروج ما هو واجب؛ الخروج إلى الصلوات ، الخروج إلى طلب الأرزاق ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك:١٥] ليس المراد ((وليسعك بيتك)) أن الإنسان يلزم البيت ولا يخرج منه ليس هذا هو المراد ، لكن يلازم الإنسان البيت ولا يكون خروجه من بيته إلا فيما تحقق منفعته ومصلحته الدينية والدنيوية ، ويخرج مستعيذًا بالله «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» كما صح بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : ((**وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**)) أي ليكن عندك ألم على ما كان منك من أخطاء وتقصير في جنب الله وندم وتوبة إلى الله سبحانه وتعالى .

فهذه الأمور الثلاثة جمعت نجاة الأمر «**امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**» .

جاء في شعب الإيمان للبيهقي قال : كَانَ عُرْوَةُ بْنُ مُجَاهِدٍ يَقُولُ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ : «أَلَا فَرُبَّ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِسَانَهُ ، وَلَا يَبْكِي عَلَى خَطِيئَتِهِ، وَلَا يَسَعُهُ بَيْتُهُ» .

١٦- أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شَاذَانَ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ السَّمَّاكِ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَيَّاطُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ يَزِيدَ الصَّائِغُ، قَالَ سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ: فِي آخِرِ الزَّمَانِ عَلَيْكُمْ بِالصَّوَامِعِ. قُلْنَا: وَمَا الصَّوَامِعُ؟ قَالَ: الْبُيُوتُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْجُو مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ

١٧- وَكَانَ يَقُولُ: لَيْسَ هَذَا زَمَانَ الْكَلَام هَذَا زمَان السُّكُوت وَلزوم الْبُيُوتِ.

١٨- وَقَالَ أَيْضًا: لِيَكُنْ شُغْلُكَ فِي نَفْسِكَ وَلَا يَكُنْ شُغْلُكَ فِي غَيْرِكَ، فَمَنْ كَانَ شُغْلُهُ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ مُكِرَ بِهِ

****

أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر عن الفضيل ابن عياض رحمه الله ، والفضيل ابن عياض من أجلَّة علماء التابعين ومن فقهاء المسلمين رحمه الله تعالى ؛ يقول : ((**فِي آخِرِ الزَّمَانِ عَلَيْكُمْ بِالصَّوَامِعِ. قُلْنَا: وَمَا الصَّوَامِعُ؟ قَالَ: الْبُيُوتُ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْجُو مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ**)) تقدَّم معنا في حديث أبي أمامة أن عقبة ابن عامر قال للرسول صلى الله عليه وسلم ما النجاة؟ قال ((املك عليك لسانك وليسعك بيتك)) ومعنى أن لزوم البيوت فيها نجاة ، بمعنى أن يلزم البيت ولا يخرج إلا لمصلحة متحققة دينية أو دنيوية ، أما إذا كان يعلم من نفسه أن خروجه لإثم أو خطيئة أو لحرام أو يسخط الله سبحانه وتعالى فليسعه بيته ولا يكن خروجه من بيته إلا

إلى ما فيه مصلحة دينية أو دنيوية ، وهذا هو المراد بلزوم البيوت ، قال ((**فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْجُو مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ**))

((**وَكَانَ يَقُولُ**)) أي الفضيل «**لَيْسَ هَذَا زَمَانَ الْكَلَام ؛ هَذَا زمَان السُّكُوت وَلزوم الْبُيُوتِ**» ولعل المصنف رحمه الله من هذا الأثر أخذ عنوان الرسالة وعنوان الباب الثاني منها «**لَيْسَ هَذَا زَمَانَ الْكَلَام ؛ هَذَا زمَان السُّكُوت وَلزوم الْبُيُوتِ**» ؛ السكوت المراد به: عن الشر والحرام والأمر المشتبه على الإنسان ، ولزوم البيوت: أي عدم الخروج منها إلا لما فيه خير . والخروج من البيوت تارةً يكون واجبًا وتارةً يكون مستحبًا وتارةً يكون مباحًا ، وقد يكون حرامًا وقد يكون مكروهًا بحسب الأمر الذي قصد الإنسان الخروج من بيته لأجله .

قال : ((**وَقَالَ أَيْضًا: لِيَكُنْ شُغْلُكَ فِي نَفْسِكَ، وَلَا يَكُنْ شُغْلُكَ فِي غَيْرِكَ**)) أي اشتغل بعيوب نفسك وتفقد أخطاءك وتأمل في معاصيك تأمل في تفريطك في جنب الله ، ولا يكن شغلك في الآخرين ، وكم من إنسان قد شغل نفسه بآخرين وربما كانوا عند الله سبحانه وتعالى خيرًا منه . فالذي ينبغي للإنسان أن يشغل نفسه بعيوب نفسه عن عيوب الآخرين ، ولهذا بعض الناس قد يكون حتى مفرط في بعض الواجبات بعض فرائض الدين ، وتجده مثلا ينال من الآخرين طعنًا وهمزًا ولمزًا وغير ذلك وهو مفرط في واجبات وفي فراض ؛ ولهذا يُنقل عن أحد السلف أنه قيل له ما نراك تتكلم في أحد؟ قال : «لست راضٍ عن نفسي» أي شغله أمر نفسه وشأن نفسه وتفقد حاله عن غيره . ((**فَمَنْ كَانَ شُغْلُهُ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ مُكِرَ بِهِ**)) .

وعلى كل حال كل ذلكم نهيٌ عن الكلام فيما هو إثم من غيبة ونميمة أو سخرية أو استهزاء أو نحو ذلك ، ولا يدخل في ذلك ما كان من الكلام نصحًا لدين الله تبارك وتعالى ممن هو أهل للنصيحة أمرًا بالمعروف أو نهيًا عن منكر أو تحذيرًا من باطل أو نحو ذلك . وهذا الاحتراز الذي ينبِّه عليه رحمه الله تعالى والصيانة للسان قلَّ من يسلم منه إلا من وفَّقه الله سبحانه وتعالى .

ولابن القيم رحمه الله كلامٌ قريب من كلامه الذي سبق يقول فيه: «وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَهُونُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ وَالِاحْتِرَازُ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ وَالظُّلْمِ وَالزِّنَى وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَمِنَ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانِهِ ، حَتَّى تَرَى الرَّجُلَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالدِّينِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَاتِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَنْزِلُ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَكَمْ تَرَى مِنْ رَجُلٍ مُتَوَرِّعٍ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ ، وَلِسَانُهُ يَفْرِي فِي أَعْرَاضِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ وَلَا يُبَالِي مَا يَقُولُ ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانْظُرْ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ – هذا كلام كثير أو كلمة واحدة؟ ((قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ)) كلمة واحدة ليس كلاما كثيرا ولا أيام وشهور وهو يتكلم وإنما كلمة واحدة ((وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنِّي لَا أَغْفِرُ لِفُلَانٍ؟ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)) فَهَذَا الْعَابِدُ الَّذِي قَدْ

عَبَدَ اللَّهَ مَا شَاءَ أَنْ يَعْبُدَهُ أَحْبَطَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ عَمَلَهُ كُلَّهُ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ نَحْوُ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ » .

١٩- أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُعَدَّلُ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ إِسْحَاقُ بْنُ أَحْمَدَ الْكَاذِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حدثنا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْأَغَرِّ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ: حَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا إِلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعِيوبِ نَفْسِهِ، وَسَاعَةٌ يُخْلِي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهَا الَّتِي لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهَا مِمَّا يَحِلُّ وَيَحْسُنُ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَوْنًا لَهُ عَلَى السَّاعَاتِ الْأُخَرِ. وَحَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِزَمَانِهِ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ، مُقْبِلًا عَلَى شَانِهِ. وَحَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُرَى ظَاعِنًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: زَادٍ لِمِعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ.

****

أورد هذا الأثر رحمه الله عن وهب بن منبه قال: ((**فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ**)) ومثل هذا يروى عند أهل العلم للاعتضاد لا للاعتماد ، ما كان يُنقل من نحو ذلك من كلمات ومواعظ ومعاني مستقيمة فإنها تُذكر يذكرها أهل العلم وتروى للاعتضاد لا للاعتماد .

قال : ((**فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ: حَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا إِلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعِيوبِ نَفْسِهِ، وَسَاعَةٌ يُخْلِي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهَا الَّتِي لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهَا مِمَّا يَحِلُّ وَيَحْسُنُ ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَوْنًا لَهُ عَلَى السَّاعَاتِ الْأُخَرِ**)) والمراد بالساعة ليس الساعة تحديدًا وإنما المراد أوقات ، يعني يقسِّم أوقاته بأن يكون هناك أوقات للمحاسبة وأوقات للذكر والعبادة وأوقات يجلس مع إخوانه ورفقائه ومن يحب ، ووقت أو أوقات في الشهوات المباحة التي أحلَّها الله ولا يكون فيها ما يسخطه سبحانه ؛ فإن هذا الإجمام للنفس في الشهوة المباحة عونًا له على الساعات الأخر .

((**وَحَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِزَمَانِهِ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ، مُقْبِلًا عَلَى شَانِهِ**)) وهذه أيضًا معاني واضحة ؛ معرفة الإنسان بزمانه وما قد يكون فيه شرور من فتن من أخطار إلى غير ذلك ، وأن يصون لسانه عما يسخط الله سبحانه وتعالى ، ومقبلًا أي على شأنه الذي ينفعه في دينه ودنياه .

((**وَحَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُرَى ظَاعِنًا** -أي مرتحلا- **إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: زَادٍ لِمِعَادٍ**)) أي يرتحل ليتزود ما ينفعه يوم لقاء الله ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[البقرة:١٩٧] .

((**أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ**)) أي طلب للعيش والرزق .

((**أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ**)) وهذه كلها معاني صحيحة .

ونكتفي بهذا القدر ونستكمل هذه الرسالة بإذن الله سبحانه وتعالى في صباح الغد ، ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا وأن يزيدنا علمًا ، وأن يصلح لنا شأننا كله وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين إنه سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .